## المحاضرة الأولى: سقوط غرناطة وانعكاساته على منطقة المغرب العربي

### 1- سقوط غرناطة 1492م ومأساة المورسكيين:

بدأت مرحلة انهيار الحكم الإسلامي في الأندلس منذ القرن الثاني عشر ميلادي، إذ في غمرة الصراعات والخلافات الطائفية بين أمراء المسلمين تمكنت الدول المسيحية من النمو والتوسع، واتحد ملوكها على طرد المسلمين من بلاد الأندلس. ومنذ ذلك العهد بدأت الإمارات الإسلامية تتساقط في يد المسيحيين حتى لم يعد قائما منها في نهاية القرن 15 سوى إمارة غرناطة في الجنوب(1235-1492م). التي أصبحت ملاذا للمسلمين المغلوبين على أمرهم، وقد حملت لواء الدفاع عن الإسلام والمسلمين بالأندلس أكثر من قرنيين من الزمان.

الزواج السياسي بين الملكة إيزابيلا ملكة قشتالة مع الملك فرديناند ملك أراقون في 1469م وأدى إلى تحقيق الوحدة السياسية عام 1474م؛ فتحالفت القوتين من أجل إخراج المسلمين من الأندلس، واتجهت جهود الملكيين الكاثوليكيين نحو القضاء على الإسلام في غرب المتوسط أولا بالاستيلاء على غرناطة آخر معقل للمسلمين بالأندلس ومحاصرة المسلمين في شمال إفريقيا وعدم ترك الفرصة لهم للتفكير من جديد في العودة إلى أرض الأندلس.

الحرب الاسترداد وأثرها علة سقوط الاندلس: عرفت في التاريخ بحروب الاسترداد Reconquista La وهي استرداد شبه الجزيرة الأيبيرية من يد المسلمين وطردهم منها وملاحقتهم واعتبرت هذه حربا مقدسة ضد المسلمين باستيلاء الاسبان على آخر حصن عربي إسلامي بالأندلس وهي غرناطة. في خريف 1489م بدأ الزحف الحقيقي نحو غرناطة أضحى سقوطها وشيكا، فقد استولى فرناندو قبل نهاية السنة على ثغر المنكب(بين المرية ومالقة) وبعد أسابيع حاصر المرية وسُلمت للنصارى في فبراير 1490م ثم استولى على بسطة بعد حصار مرير، ولم يبق أمام فرناندو إلا غرناطة آخر جبة في عقد الأندلس. سار هذا الأخير نحو غرناطة مع مطلع 1491م بجيش قوامه بين 50 و80 ألف من الفرسان والمشاة، وحاصرها، دام الحصار سبعة أشهر وقد أظهر سكان غرناطة شجاعة فائقة في الدفاع عن مدينتهم، وضربوا مثلا رائعا في الجهاد والتضحية في غياب المؤونة بعد توافد المسلمين من ضواحي غرناطة واشتداد الحصار. إلى أن تم الاستسلام وقبول المفاوضات مع الملكيين الكاثوليكيين،

توصل فيها الطرفان إلى صياغة معاهدة الاستسلام النهائية في نوفمبر 1491م الموافق ل محرم 897ه.

– **أثر سقوط غرناطة على المسلمين في الأندلس:** لم يتم احترام ما ورد من بنود في معاهدة الاستسلام وأصدرت الحكومة الأسبانية مرسوما سنة 1499م يقضي بتنصير أبناء المسلمين الذين قرروا المكوث بالأندلس ومراقبتهم والوشاية بهم ومحاكمتهم على أيدي دواوين التفتيش إذا ما لوحظت أبسط الظواهر لممارسة دينهم أو لعدم تنفيذ تعاليم الدين المسيحي الجديد الذي اعتنقوه مؤخرا، كعدم وضع علامة صليب في غرفة النوم مثلا أو الجلوس على الأرض عوض الكرسي أو عدم أكل لحم الخنزير أو شرب الخمر أو التفوه بأي كلمة عربية. فكانت هذه العلامات كفيلة بمحاكمة المورسكيين وإنزال أشد العقوبات عليهم.

**2– انعكاسات سقوط غرناطة على المغرب العربي:** لم يكتف الاسبان من استرجاع الأندلس واضطهاد المسلمين هناك، ولكن لاحقوهم حيثما يحلون، ومن ثمة تعرضت سواحل المغرب إلى هجومات اسبانية متكررة كانت كثيرا ما تنتهي باحتلال عسكري لبعض الموانئ الرئيسية. ولقد كان البرتغال يقوم بنفس العمليات على سواحل المغرب الأقصى من جهة المحيط الأطلسي للاستيلاء على مراكز يستعملها لتزود القائمين بأعمال الكشف في سواحل إفريقيا الغربية من أسواق مراكش.

**1–2– الغزو الاسباني والبرتغالي على سواحل المغرب العربي:**

**أ– دوافع الغزو: الدوافع الدينية:** يعتبر من أقوى الدوافع ويتمثل في الحقد الصليبي، والعداوة التقليدية بين الإسلام والمسيحية ولما توحدت اسبانيا تحت زعامة فرديناند الكاثوليكي الذي أخذ غرناطة من بني الأحمر سنة 1492، رغبت في احتلال بلاد الإسلام المغربية لنشر المسيحية في ربوعها. وأصبحت أسبانيا تعتبر نفسها تمثل العالم المسيحي بعدما تمكنت من القضاء على الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة إيبيريا. وهذا ما يفسر مدى التعصب الديني والرغبة في محاولة تنصير المسلمين بالأندلس ونشر المسحية خارج شبه الجزيرة الإيبيرية، واعلنت اسبانيا الحرب الصليبية المقدسة، التي كان يغذيها رجال الكنيسة الكاثوليكية. فقد صرح فرديناند في كثير من المرات أنه يعمل لأجل الرب، ومن أجل الديانة المقدسة والعمل على محاربة أعداء الإيمان المسيحي الكاثوليكي.

والدور الذي لعبه المتعصبون من رجال الدين الأسبان، نذكر الكاردينال كزيمنيس(خيمينس) Ximanesدورا بارزا في إعداد الحملات الأسبانية وتوجيهها بل قدم من ماله الخاص المقادير التي أمكن بها تجهيز الحملة ووضع الخطط. لقد تبنى تغطية نفقات الحملات العسكرية الأولى من ماله الخاص ومن خزائن الكنيسة.

ولم يكتف بذلك بل راح يستنجد بكنائس اسبانيا التي بعث إليه بكميات كبيرة من المال، وقد باع كثير من القساوسة والرهبان أدواتهم الفضية من لأجل المشاركة في الحملة ضد السواحل الإفريقية. وقد بادر البابا بنشر قرار يعطي به الولاية لملكي اسبانيا– ازابيلا وفارديناند– على كامل الأرض التي يفتحانها بالمغرب العربي.

وصية ملكتهم إيزابيل بأن يواصلوا الزحف على الشمال الإفريقي وينشروا المسيحية، إلى جانب مساهمة الأفراد من خلال ضريبة La Crusada إذ أصدر البابا أمره السامي بمواصلة دفع الضريبة. وهي عبارة عن إمدادات مالية تدفع كل خمس سنوات تقدم إلى خزينة الملكيين الكاثوليكيين لتمويل مشاريع الحملات الصليبية وتسهيل عملية القضاء على النفوذ الإسلامي بالأندلس، وفي شمال إفريقيا؛ وبذلك استطاعت أسبانيا تمويل الحملات العسكرية وتغطية النفقات.

**الدوافع الاقتصادية:** أصبحت أسبانيا تعاني من أزمة كبيرة بعد سقوط غرناطة، وتشتت شمل المسلمين وإبعادهم عن البلاد، كما أبعد اليهود وأحرق من بقي منهم ونتيجة لذلك تعطل الإنتاج وانعدمت وسائل التصنيع وتدهورت التجارة والمعاملات، فقد عرفت أسبانيا انهيار اقتصادي بعد رحيل المسلمين من الأندلس. وأمام هذه الحالة لم يبق للإسبان من سبيل لكسب المعيشة إلا ذلك النوع من اللصوصية فاندفعوا في غزوات ومغامرات ونظروا لبلاد المغرب كوسيلة حل للأزمة الاقتصادية الخانقة التي تعاني منها اسبانيا وذلك لاشتهار المغرب العربي بأنه مهد الخيرات ومنبع الثروات فيمكن أن يزود اسبانيا بما هي في أمس الحاجة إليه بعد السيطرة عليه. أصبحت اسبانيا بعد الكشوف الجغرافية تبحث عن أسواق خارجية لبعث تجارتها وإلى ثغور جديدة تحتلها لحماية أساطيلها، فكان عليها بالتالي احتلال السواحل المغربية.

كما كانت اسبانيا ترغب في توسيع طرقها البحرية التجارية في الحوض الغربي للبحر المتوسط وذلك للتصدي للتوسع العثماني في الحوض الشرقي للمتوسط، إضافة إلى تخوف أسبانيا من احتمال

حدوث تحالف ما بين دويلات المغرب ودولة المماليك في مصر لذلك رأت أسبانيا أن تظهر كقوة في الحوض الغربي للمتوسط وذلك بالسيطرة على المغرب العربي. كما كان البرتغال يهتم بالسواحل المطلة على المحيط الأطلسي من أجل النفوذ إلى أعماق إفريقيا، إلى بلاد السودان الغربي الغنية بالذهب.

– **سير عمليات الغزو:** وقد تركز التدخل الأسباني في المغربيين الأوسط والأدنى وجزء من الشمال الشرقي للمغرب الأقصى واكتفى البرتغال بشواطئ المغرب الغربية على الأطلسي وباقي شواطئ إفريقيا الغربية وذلك بعد معاهدة توردي سيلاس Tordesillas في 7 جوان عام 1494م التي عقدت بين اسبانيا والبرتغال برعاية البابا والتي خصصت لأسبانيا المناطق الواقعة شرقي حجر بادس، فتم فيها تقسيم مناطق النفوذ بين البرتغال والإسبان. واعترفت اسبانيا في احتلال الجزء الشرقي من ساحل المغرب الشمالي «فكل ما هو شرق حجر بادس لأسبانيا وليس هذا فحسب بل طلبت أسبانيا من البابا اسكندر السادس منحها براءة يأذن لها فيها بالتوسع في إفريقيا أي بالسواحل المغربية وقد باركت البابوية ذلك في 12 نوفمبر 1494 بما يلي: «إلى أرواح الذين سيشاركون بأموالهم وأرواحهم في عمليات الغزو».

استولى الإسبان على ميناء مليلة وأخذوا يبعثون الجواسيس إلى المناطق المحيطة ومن هذه البعثات بعثة على رأسها لورينثودي باديا إلى مملكة تلمسان وهم في زي تجار فحصلوا على المعلومات التي يحتاجونها للغزو.

احتل البرتغاليون سبة في تاريخ مبكر 1415 وذلك بقصد وضع أيديهم على مضيق جبل طارق وطنجة 1471، والعرايش 1489، وآسفي 1508. كما احتل الأسبان مليلة في 1497م، والمرسى الكبير 1505، والبانيون 1508، ووهران 1509م، وبجاية وطرابلس 1510م وبالتالي تمكنت من السيطرة على المنطقة ومراقبتها وبناء الحصون المنيعة والكنائس وتتبع نشاط الأتراك العثمانيين.

احتلال الاسبان المرسى الكبير 1505م والسبب موقعه الهام وصلاحية مينائه لرسو السفن، كان مأوى للتجار المسلمين الذين يغيرون على السفن والسواحل الإسبانية. في عام 1508 احتل الأسبان حجر بادس المعروف بموقعه الممتاز على سواحل المغرب الأقصى الشمالية. احتل قائد الأسطول

الاسباني بيدرو نافرو وهران في عام 1509 وسبب سقوطها بسهولة راجع لوجود خيانة من قادة حرس الثغر وقبائل مثل بني عامر وغيرهم وقتل في المدينة 8000 من الأبرياء والعجزة.

كان سقوط وهران قد أثار ضجة في العالم الإسلامي حيث أصبحت وهران مركزا للنشاط الإسباني في الشمال الإفريقي بينما أصبحت مليلة مركز ملاحظة ومراقبة لحركات البحارة العثمانيين، وكذلك أصبحت وهران ومليلة مأوى للخارجين على السلطات المغاربية كالبيت الوطاسي أبي سحون علي بن محمد الشيخ. نتيجة لذلك اضطرت عدة موانئ أخرى على سواحل المغرب الأوسط مثل دلس، وتنس، ومستغانم أن تعترف بالسلطة الاسبانية. وإزاء هذه الأوضاع، سارع حاكم مدينة الجزائر سالم التومي إلى عقد صلح مع الاسبانيين في جانفي 1510م، تضمن أحد شروطه إقامة حامية اسبانية في إحدى الجزر المقابلة لميناء الجزائر، حيث بنا الأسبان عليها حصنا حربيا منيعا سمي "البانيون" طالما هددت مدفعيته المدينة، كانت مهمة هذا الحصن هي مراقبة كل ما يجري من تحركات في البحر دون انقطاع وإحباط كل محاولات السيطرة على المدينة الجزائر من جهتها البحرية، وكان من مهامه أيضا إجبار سكان مدينة الجزائر على احترام من في الحصن، ومنع القراصنة من استعمال الميناء كملجأ. لم تكن الدولة الزيانية آنذاك من القوة بحيث تستطيع رد الغزو الأجنبي عن البلاد، فعقدت صلحا مع الأسبان عام 1512م اعترفت فيه باستيلاء الاسبان على عدة موانئ في الغرب الجزائري.

احتل الإسبان طرابلس عام 1510 واتخذوها قاعدة عسكرية وحكموها عشرين عاما وسيطروا على تجارة الميناء واحتكروها ثم تنازلوا عنها لفرسان القديس يوحنا عام 1535م حتى انتزعها منهم الأتراك العثمانيون عام 1551.

لقد جاء الاحتلال الإسباني لسواحل المغرب عقب سقوط غرناطة 1492م، إذ وجدت اسبانيا نفسها بعد ذلك الانتصار قوية هذا من ناحية ومن ناحية أخرى وجدت نفسها أكثر حرية للتحرك، ورأت أن نقل الحرب إلى بلاد المغرب أمر ضروري واستراتيجي بهدف تطويق بلاد المغرب خوفا من إعادة الكرة؛ فالأسبان لم ينسوا أن الفتح الأندلس كما أن هناك ظروف وأحداث عجلت بذلك هي ثورة البشرات بجبال غرناطة 1499م و1501م التي جعلت الاسبان يدركون خطر الإسلام في بلاد المغرب، إلى جانب أوضاع المغرب، وحالة الانهيار التي كانت تعيشها المنطقة كانت تفتقر إلى الوحدة السياسية والقيادة الحكيمة، والتنظيم الشامل، بالإضافة إلى عدم معرفة المغاربة لاستعمال الأسلحة الحديثة. إلى جانب تواجد بعض البحارة العثمانيين الذين حملوا على عاتقهم إنقاذ المهاجرين من أهل الأندلس.

## المراجع:


-عبد الله عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، الطبعة الثانية، القاهرة، 1958م

-لوي كارديلك، المورسكيون الأندلسيون والمسيحيون المجابهة الجدلية(1492-1640م) مع ملحق بدراسة عن المورسكيين بأمريكا، تعريب وتقديم عبد الجليل التميمي، منشورات المجلة التاريخية المغربية وديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، تونس، 1983م.

-عبد القادر فكاير، الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية وآثاره(910-1206ه/1505-1792م) دراسة تتناول الآثار السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية على الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2012.

-جلال يحي، تاريخ المغرب الكبير العصور الحديثة، دار النهضة العربية، بيروت لبنان، 1981.

-دلندة الأرقش، عبد الحميد الأرقش، جمال بن طاهر، المغرب العربي الحديث من خلال المصادر، مركز النشر الجامعي، تونس، 2003.

محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، الطبعة الثانية، مكتبة الشرق، بيروت، 1979.

Fernand Braudel, «Les Espagnols et l'Afrique du Nord de 1492 à 1577», R.A, Vol 66, 2é et 3 é tri. 1925